المحاضرة رقم 05: إلياذة الجزائر لمفدي زكريا

يعتبر الشاعر الثوري مفدي زكريا من أكثر الشعراء الذين تناولتهم الدراسات النقدية، وقد تنوّعت بين عرض المضامين وعرض الخصائص الفنية، ولأن إنتاجه الشعري كثير تقاسمته الدراسات فبعضها درس الإلياذة وبعضها جمع بين اللّهب المقدس والإلياذة، و هناك دراسة واحدة تناولت شعره المجهول قبل سنة 1954[1] فكان لها شرف السبق إلى ذلك. وتشترك مع هذه الدراسات في خاصية السبق دراسة تناولت جميع شعر مفدي زكريا بالدراسة وهي "لحواس بري" بعنوان: "شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم "

أنطلاقا من الدراسة الأخيرة نحاول مع الطلبة التعرّف على إلياذة مفدي زكريا من خلال عرض ومناقشة أهم الفروق بينها وبين الملحمة اليونانية.

الفرق بين الإلياذة الجزائرية والملحمة اليونانية:

تحدّث حواس بري في الفصل الأخير من كتابه " شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم عن مكانة مفدي زكرياء في الشعر الجزائري الحديث، حيث قام بمقارنته بمحمد العيد في الجانبين المضموني والفني وذهب إلى أن مفدي لم يتوقف عن العطاء الشعري" بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها وإنما بقي كما عهدناه بقريحته المعطاءة ينظم الملاحم ويكتب القصائد"[2] وهو يقصد بالملاحم الإلياذة كما وصفها كثيرون، ترى ما هو الفرق بين الملحمة الجزائرية والملحمة اليونانية باعتبارها النموذج الأول لهذا الفن؟.

1. من ناحية الموضوع وتحديد المتلقي في الملحمة اليونانية" ظل الأدب يتوجه في خطابه إلى الطبقة الارستقراطية ويمجّدها ويتكلم عليها فموضوعات الملحمة في تمجيد الآلهة وأشباههم من الأبطال"[3] أما إلياذة مفدي زكرياء فمقدمة لكل طبقات المجتمع وأبطالها أشخاص حقيقيون وتحكي قصة شعب مناضل تصدى لكل أشكال الاستعمار. ويرى يحي الشيخ صالح أن" موضوع إلياذة الجزائر ملحمي في مجمله إلا فيما يتعلق بمرحلة

---

[1] ـــ محمد ناصر، مفدي زكريا، شاعر النضال والثورة ، المطبعة العربية 1984.

[2] ـــ حواس بري، شعر مفدي زكريا، دراسة وتقويم، ص 407.

[3] ـــ خليل موسى، جماليات الشعرية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 113.

الاستقلال حيث تناول الشاعر مشكلات ثقافية وأخلاقية بعيدة نوعا ما عن الصراع"[4] ،ومفدي زكرياء بذاته يعترف بهذا الانحراف الملحمي ولا يرى بأسا في ذلك يقول الشاعر:

قالوا انحرفت بإليـاذة تلوم الشباب ومثـلك يعلو

هوميروس أرَّخ لم ينتقـد وشهامة الفرس بالوصف تعلو

فقلت: وشعر الخرافات يفنى وشعر البطولات لا يضمحل[5]

يفخر مفدي زكريا بإلياذته لأنه أنشدها للبطولات الحقيقة.

2. **الأسطورة:** إلياذة الجزائر لم تحتوِ على الأساطير والخرافات الخارقة للعادة كما هي عند اليونان وذلك لأسباب منها: أن اليونان كما هو معروف عباد آلهة، ولهم مع كل إلاه قصة وأسطورة قديمة، تداولتها الأجيال معتبرةً إياها جزءا من التاريخ اليوناني، بينما إلياذة الجزائر صاحبها إنسان مسلم يؤمن بالإله الواحد، وهو لم يقلد تلك الملاحم القديمة في خيالها المطلق " إن هوميروس أبو الملحمة عندما نظم إلياذته كان يعيش الفكرة الخرافية ويؤمن بها، وتمازج شعوره متخذة عنده شكل اعتقاد راسخ لا يتزعزع ولذلك عندما أنشد إلياذته صدر فيها عن ذلك المعتقد وذلك الشعور"[6] فتكون إلياذة الجزائر بهذا قد أسقطت أهم عناصر الملحمة اليونانية، وجسّدت حقيقة تاريخية عاشها الشعب الجزائري.

3. **الأسلوب القصصي:** وما يترتب عليه من وحدة عضوية: فالإلياذة أخلَّت ببعض عناصر الأسلوب القصصي كالحبكة والتشويق وقد وصفه يحي الشيخ بأنه " أسلوب قصصي جاف تنقصه الروح القصصية، فالتشخيص قليل جدا والحبكة الفنية للأحداث لا نرى لها أثرا،"[7] وأسلوب القصص يقتضي وحدة عضوية طالب النقاد بضرورتها في الملحمة وقد حاول مفدي زكرياء تحقيقها بالرغم من كثرت الأحداث التاريخية،" والوحدة العضوية متأكدة رغم تباعد مسافات المعاني بعض الأحيان إلا أنها مشدودة إلى بعضها البعض"[8] وعليه فإلياذة مفدي زكرياء حققت بعضا من خصائص الملحمة وانحرفت عن

---

[4] ـــ يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 234.

[5] ـــ مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني، الجزائر،ط1، دت، ص 100.

[6] ـــ يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 241.

[7] ـــ المرجع نفسه، ص 249.

[8] ـــ بلحيا الطاهر، تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، ص 65.

البعض الآخر ورسمت لها طريقا خاصا كسرت به تقاليد الملحمة اليونانية المهمة كالأسطورة.

من الخصائص الأسلوبية التي وجدناها في شعر مفدي زكريا تلك **الاستهلالات** التي بدأ بها مفدي قصائده ومن الذين لفتت انتباههم هذه البدايات وجدنا حسن فتح الباب الذي علّق على مطلع الإلياذة بالحسن:" إن هذا المقطع يتفق من حيث جمال الصياغة بصفة عامة مع ما قاله هؤلاء النقاد في بيان إحدى خصائص القصيدة الجيدة وهو حسن الاستهلال"[9] ومطلع الإلياذة خبري تخلله أسلوب النداء:

جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات [10]

ويرى أبو القاسم سعد الله أن هذه الميزة مشتركة بين الشعراء الجزائريين في تلك الفترة" لما امتاز به هذا الشعر بتفخيم المطالع وتصريعها واختيار أبعد الألفاظ وأوقعها... ومن خصائصه استعمال الدعاء والترحم والضراعة والأمر والنهي"[11] ويرجع محمد ناصرهذا إلى الجو الديني المحافظ الذي ترعرع فيه أغلب الشعراء الإصلاحيين.

---

[9] ــ حسن فتح الباب، مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، الدار المصرية اللبنانية، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 59.

[10] ــ مفدي زكريا، إلياذة الجزائر منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف،ط3 ،2002،ص17 .

[11] ــ أبو القاسم سعد الله، دراسات الأدب الجزائري، دار الغرب الإسلامي، لبنان ،ط2 2005 ،ص 49.